مجلة المعيار ISSN :1112-4377
مجلد: 27 عدد: 3 (رت 72) السنة: 2023

مشاريع التجديد الديني في شبه القارة الهندية.. الشاه وليّ الله الدهلوي أنموذجا

Religious renewal projects in the Indian subcontinent.. Shah Wali Allah Dehlawi as a Model

شايب خليل [1]
جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية
k.chayeb@univ-emir.dz

تاريخ الوصول 2022/07/18 القبول 2023/01/29 النشر على الخط 2023/03/15
Received 18/07/2022 Accepted 29/01/2023 Published online 15/03/2023

ملخص:

يعتبر تجديد الفكر الديني من أهم العوامل التي تضمن للدين استمراريته في الزمكان، وبغض النظر عن كون الدين سماويا أو أرضيا فإن العمل على تحيين أحكامه وتجديد معالمه ضروري جدا ليواكب المتغيرات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية.. للرقعة الجغرافية التي ظهر فيها؛ ولأن لكل بيئة خصوصياتها وظروفها، فإن المشاريع التجديدية لا بدّ أن تنطبع بهذه الخصوصية وتحاول التأقلم معها أولا ثم التجاوز؛ عرفت شبه القارة الهندية في عهدها الإسلامي الأخير انحطاطا كبيرا على مختلف الأصعدة، لذلك كان للتجديد الديني وخاصة مشروع المجدد الشاه ولي الله الدهلوي دور كبير ومهم في تصحيح العقيدة، والحفاظ على الدين الإسلامي فيها، بالإضافة إلى إطالة عمر الدولة المغولية ومجابهة الاستعمار البريطاني؛ ويعتبر ما حققه الدهلوي من تغيير مهم وجدير بالدراسة والتحليل.

الكلمات المفتاحية: الدهلوي، شبه القارة الهندية، التجديد الديني، إصلاح العقيدة..

Abstract:

The renewal of religious thought is one of the most important factors that guarantee the continuity of religion in space-time. Regardless of whether the religion is heavenly or earthly, working to update its provisions and renew its features is very necessary to keep pace with the social, political and economic changes... of the geographical area in which it appeared; And because each environment has its own peculiarities and circumstances, the innovative projects must be imprinted with this specificity and try to adapt to it first and then overcome; In its last Islamic era, the Indian subcontinent witnessed a great decline at various levels, so religious renewal, especially the project of the Mujaddid Shah Wali Allah Dahlawi, had a great and important role in correcting the faith and preserving the Islamic religion in the Indian subcontinent, in addition to prolonging the life of the Mughal state and confronting British colonialism ; The change that Al-Dahlawy achieved is considered important and worthy of study and analysis.

Keywords : Dehlawi, the Indian subcontinent, religious renewal, creed reform .

[1] المؤلف المراسل: **شايب خليل** البريد الإلكتروني: **k.chayeb@univ-emir.dz**

1. مقدمة:

ظلت الفكرة الدينية رفيقة الإنسان في رحلته الطويلة نحو تحقيق الحلم الآدمي المخلّد في قول الله: (وقال ما نهاكما ربّكما عن تلكما الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين)[1]، لذلك أكد فلاسفة الحضارة على استحالة غياب المعابد عن الحضارات البائدة بغض النظر عن الدين السائد سماويا أو أرضيا، صحيحا أو محرّفا؛ ولأن لكل خلود ضريبة، فإن الأديان التي رضيت أن تبقى حبيسة المعبد ولا تجاوزه إلى الفضاء العمومي لتتفاعل مع حياة الناس وتتغلغل في عاداتهم وتقاليدهم، وتضع بصمتها على تفكيرهم وعمرانهم، اندثرت معالمها لتبقى معابدها شاهدة على جمودها وركودها.

إذا جئنا للإسلام، فإضافة إلى المحدودية، تعتبر عالمية الخطاب، وخاتمية الرسالات، والصيرورة اللامنتهية في الزمان والمكان، خصائصَ كفلها الله عزّ وجلّ لهذا الدّين، قال تعالى: (إنّا نحن نزّلنا الذكر وإنّا له لحافظون)[2]، فهو كتاب مفتوح للأجيال، متفاعل مع خصوصية كل حقبة تاريخية ومُجاوز لها بما أودع فيه من حفظ وخلود؛ إضافة إلى الحفظ الرباني فقد فتح الحديث النبوي: "إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مئة سنة من يجدد لها دينها"[3]المجال واسعا أمام مشاريع فكرية تجديدية توزعت على جسد الأمة الإسلامية انبرى لها مفكرون وادّعاها آخرون فقط من أجل أن يبقى هذا الدين حيّا فينا وبيننا، أثبتت هذه المشاريع أهميتها لا في تجديد الفكر الديني فقط، بل في تغيير أنظمة سياسية ومجابهة الاستعمار الغربي، وغيرها من التأثيرات التي فرضتها خصوصية كل قطر.

بمجرّد أن نذكر الإسلام ومشاريع التجديد في شبه القارة الهندية، والمدرسة الحديثية وسلاسلها الذهبية يتبادر إلى الأذهان العلامة المجدد صاحب المؤلفات الغزيرة والتجربة الروحية الفريدة "الشاه ولي الله الدهلوي[4]"، وهذا ما يدفعنا للتساؤل: هل ظهرت حركات تجديدية في أماكن خارج البيئة العربية وبالتحديد في شبه القارة الهندية؟ هل كان للخصوصية الجغرافية كلمتها في توجيه الحركات التجديدية هناك خاصة وأن الظروف غير ظروف بيئتنا؟ ما هي أهم النقاط التي ركز عليها الدهلوي في مشروعه التجديدي؟.

لذلك سنحاول البحث عن معالم التجديد في فكره من خلال الخطة التالية:

- مقدّمة.
- الدهلوي وإصلاح العقيدة الإسلامية.
- إعادة الاعتبار للسنة النبوية.
- إصلاح التصوف.

---

[1] - سورة الأعراف، الآية: 20.

[2] - سورة الحجر، الآية: 09.

[3] - محمد ناصر الدين الألباني، صحيح سنن أبي داود، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط1، 1998، ج3 ، ص 23، كتاب الملاحم، باب ما يذكر في قرن المئة، قال الألباني: صحيح.

[4] - أبو محمد ولي الله الدهلوي (1114- 1179 ه) مجدد القارة الهندية، له عديد المؤلفات منها: إزالة الخفاء عن خلافة الخلفاء، حجة الله البالغة، التفهيمات الإلهية. انظر: محمد بشير السيالكوتي، الإمام المجدد المحدث الشاه ولي الله الدهلوي حياته ودعوته، دار بن حزم، بيروت،لبنان، ط1،1999، ص 146 وما بعدها.

- فتح باب الاجتهاد وذم التعصّب.
- البحث في البعد المقاصدي للتشريع.
- خاتمة.

ولد الإمام الدهلوي وعاش في عهد كانت الدولة الإسلامية تعاني من إفلاس فكري وركود حضاري رهيب، ترك بصمته على جميع النواحي الحياتية، فقد كانت الدولة المغولية في حالة احتضار، كما استشرى في أوساط المجتمع الهندي كثير من البدع والخرافات، بالإضافة إلى انتشار التشيع والتصوف المنتحل، إلى جانب التأثر الكبير بالحضارة الهندوسية والابتعاد عن روح القرآن الكريم وهدي السنة النبوية.

انطلاقا من هذه الأوضاع المزرية، واقتناعًا منه بتمثيله لفكرة التجديد الديني كما يصرح في كثير من كتبه، منها ما جاء في التفهيمات الإلهية: "ثم حصل لي مقامات الصحابة والأولياء والعلماء، فأقمنا مقام الوصاية والإرشاد والمُجددية.."[1]، وقال :"وأقرب الناس إلى المجددية المحدثون القدماء كالبخاري ومسلم وأشباههم، ولما تمّت بي دورة الحكمة ألبسني الله سبحانه خلعة المجددية فعلمت علم الجمع بين المختلفات وعلمت أنّ الرأي في الشريعة تحريف وفي القضاء مكرمة"[2]، وقال:"وأشار إليّ رسول الله صلى الله عليه وسلم إشارة روحانية أن مراد الحق فيك أن يجمع شملا من شمل الأمة المرحومة بك"، قال الأمير صديق حسن خان تعليقا على ذلك: "وهو كما قال ولله الحمد"[3]، والظاهر مما تم سرده تبنيه لفكرة التجديد وعمله على تحديد مواطن القصور ومكان الأخطاء ومعالجتها.

ولتطبيق هذا المشروع الإصلاحي التجديدي، نجد أن الدهلوي اعتمد على ثلاث ركائز رئيسة هي: التدريس والذي تولاه بعد وفاة أبيه، التأليف وقد كانت جُلَّ كتاباته تصبّ في بوتقة الإصلاح اجتماعي والسياسي..، بالإضافة إلى أسلوب الدعوة والإرشاد، وهو ما يمكننا أن نلمسه وبوضوح من خلال نصائحه ورسائله للسلاطين والملوك والعلماء وطلبة العلم، وعامة الناس، لينشطوا من سباتهم وضعفهم و كونهم.

ويمكن أن نلخص هذه الجهود في مجموعة من النقاط كالآتي:

2. إصلاح العقيدة الإسلامية:

قلنا آنفا أن العقيدة الإسلامية بالهند بصفة خاصة في القرن الثاني عشر للهجرة قد خالجها كثير من المعتقدات الفاسدة التي عكّرت صفوها، وألحقت بها كثيرا من التصرفات الباطلة كاعتقاد النفع والضر في أصحاب القبور، وتصرف بعض الناس في المظاهر الكونية، إضافة إلى امتزاجها ببعض الخرافات والطقوس المقتبسة من الديانات الهندية الوضعية، يقول واصفا تلك الأوضاع السائدة: "ما من آفة من هذه الآفات –يقصد الشرك، التوسل بالمقبورين، التشبيه..– إلا وقوم من هذا الزمان واقعون في ارتكابها معتقدون مثلها"[4].

---

[1]– الدهلوي، التفهيمات الإلهية، المجلس العلمي، دابهيل (سورت)، الهند، ط1، 1936، ج2، ص 144.

[2]– المصدر نفسه، ج1، ص 40 .

[3]– الكتاني، الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام "نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر، ج5، دار بن حزم، بيروت، لبنان، ط1، 1999، ج2، ص1120.

[4]– الدهلوي، الفوز الكبير في أصول التفسير، دار قتيبة، بيروت، دمشق ، ط1، 1999، ص19.

في ظل هذه الانحرافات العقدية حاول الدهلوي أن يعيد توجيه الدفة نحو النبع الزلال، القرآن الكريم و السنة المطهرة باعتبارها أقوى وأنفع ترياق، لكنه لاحظ تلك الفجوة الكبيرة الحائلة بين العامة وبين القرآن الكريم لعدم تمكنهم من اللغة العربية، خاصة وأن اللغة الفارسية هي اللغة الرسمية آنذاك، لذا ومن خلال نور عقله المقاصدي قرر أن مصلحة المسلمين في نقل معاني القرآن الكريم وحِكمه وأحكامه إلى لغة أهل الهند، ليتمكّنوا من الانتقال من رسمه إلى روحه الباعثة على العمل؛ وقد اعتبرت هذه الترجمة من أدق الترجمات وأنفعها، خاصّة وأنها ضمّت إلى جانبها تعليقات وجيزة أورد فيها أسباب النزول، إلى جانب بعض قصص الآيات التي لا تفهم إلا من خلالها[1]، لتكون هذه الترجمة متماثلة مع روح عصره، يقول في هدفه من الحرص عل مواكبة تطور العصر في التفسير: "إن نصيحة المسلمين تتنوع أشكالها وصورها، وتتطلب مقتضيات مختلفة حسب الزمان والمكان (..) وتقضي نصيحة المسلمين في هذه الديار التي نقطنها وهذه الفترة الزمنية التي نعيش فيها أن تكتب ترجمة للقرآن الكريم بلغة فارسية سهلة متداولة بين العامة من غير تكلّف (..) ليفهمها العامة والخاصة سواء بسواء"[2].

كانت هذه الترجمة حجر الزاوية وخطوة مرحلية نحو هدف أسمى هو تصفية العقيدة الإسلامية مما ألحق بها، لذا نجده في جُلّ كتبه المصنفة في العقيدة يحرص على بيان حقيقة التوحيد، وإيضاح معاني الشرك ومظاهره، ليكون المسلم على بيِّنة من أمره، إذ إن التوحيد كما يرى الدهلوي أصل أصول البر والتقوى وعمدة أنواعه، كيف لا والإخبات لربّ الأرباب لا يكون إلا به، كما أنه أعظم الأخلاق الجالبة للسعادة الدنيوية والأخروية ، والموجّه الوحيد للإيمان بالأمور الغيبيّة[3].

ومع انتسابه لمذهب السادة الأشاعرة في المعتقدة كما يصرح في كتاباته، إلا أنه يقيد هذا الانتساب بالمتقدمين دون المتأخرين كما جاء في الفضل المبين: "قال الفقير ولي الله عفي عنه ومختاره في العقيدة مذهب المتقدمين من الأشاعرة.."[4]، ويقصد هنا المفوضين لأمر الصفات الإلهية إلى صاحبها عز وجلّ دون تأويل، ورغم ذلك نجده يميل في بعض الأحيان إلى التأويل، فقد جاء في مؤلفه الموسوم "حجة الله البالغة" مثلا أن الصفات الإلهية يجب أن تستعمل بمعنى وجود غايتها لا وجود مبادئها، فيذهب مثلا إلى أن معنى الرحمة هو إفاضة النعم لا انعطاف القلب والرقة التي هي من صفات الحوادث، وتبسط معنى اليد بالجود[5] وهذا تأويل انتهجه متأخروا الأشاعرة.

3. إعادة الاعتبار للسنة النبوية:

نصيب العلوم الحديثة في شبه القارة الهندية بين سائر العلوم الدينية في تلك الفترة يكاد يكون منعدمًا ومتلاشيا، وذلك نتيجة الاعتماد المفرط على المناهج العقلية والفلسفية وذيوع صيتها؛ لكن بمجرد رجوع ولي الله من رحلته إلى الحجاز بزادٍ علميّ ومعرفي كبير شمل العلوم الدينية بصفة عامة، والحديث النبوي بصفة خاصة، بدأت الأوضاع تتغير.

---

[1]- مصباح الله عبد الباقي، الإمام ولي الله الدهلوي وترجمته للقرآن، مجلة البحوث والدراسات القرآنية، الأمانة العامة لمجمع الملك فهد لطباعة المصحف، المدينة المنورة، السعودية، 2008. العدد السادس، ص 176.

[2]- مقدمة فتح الرحمن بترجمة القرآن، ص21-22. نقلا عن: مصباح الله عبد الباقي، المرجع نفسه، ص177-178.

[3]- الدهلوي، حجة الله البالغة، تحقيق السيد سابق، ج1، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط1، 2005، ج2، ص 115.

[4]- الدهلوي، الرسائل الثلاث: الفضل المبين في المسلسل من حديث النبي الأمين، الدر الثمين في مبشرات النبي الأمير، النوادر من أحاديث سير الأوائل والأواخر، تعليق: محمد عاشق إلهي، دار الكتاب يوبند، يوبي، الهند، ط1، 1418ھ ، ص63.

[5]- الدهلوي، حجة الله البالغة، المصدر نفسه، ج2، ص 122-123.

رأى الإمام الدهلوي أن عمدة العلوم اليقينية ورأسها، ومبنى الفنون الدينية وأساسها هو علم الحديث[1]، ومن هنا جاء اهتماماه الكبير به، فقد رأى في مجال أصول الدين أن العقائد الدينية لا تستنبط إلا من خلال أدلتها التفصيلية أي الكتاب والسنة، كما جعل من الأحاديث النبوية أساسا في تفسيره للقرآن الكريم واستنباطه للأحكام الشرعية، والتنظير في مجال التزكية والإحسان والتربية الروحية، ولكل هذا نجده لم يكتفي في تدريسه للسنة على المقررات الدراسية السائدة آنذاك بشبه القارة الهندية والمقتصرة على كتاب مشارق الأنوار للشيخ حسن الصغاني اللاهوري، ومشكاة المصابيح للشيخ ولي الدين التبريزي، بل اهتم بالكتب الحديثة المدونة كلها، وعلى رأسها الموطأ الذي يعتبره أصل علم الحديث وأساسه، بل إنه كان يقدمه على صحيح البخاري وهذا لتأثره بشيخه وفد الله المالكي من جهة، و لإعجابه بالكتاب وتقسيماته من جهة أخرى، وهو ما دفعه لتأليف شرحين له:

-المسوّى شرح الموطأ: وهو مؤلف باللغة العربية.

-المصفى شرح الموطأ باللغة الفارسية.

كما أنه سار في تدريسه للحديث على خطى المحدّثين الأوائل، وأنكر على الفقهاء الذين يَلْـوُون حروف الأحاديث وكلماتها ويتأولونها كيفما يشاؤون لتأييد مذاهبهم؛ وكان مقصوده من وراء ذلك إيجاد نظرة تكاملية تجمع بين الفقه والحديث والإحسان أو التصوّف، بل إنّه أراد أن يمتد الجمع ليشمل المذاهب الأربعة أو بالأحرى مذهبي الشافعي وأبي حنيفة في مذهب واحد، و يكون الداعم لهذا الجمع هو الحديث النبوي[2]؛ ولعلّ هذا ما دفعه إلى تقديم واختار طريق الفقهاء المحدّثين مذهبًا له، يقول في ذلك: "وبعدما اطلعت على كتب المذاهب الأربعة وأصولها، ونظرت في الأحاديث التي يتمسكون بها، اعتزمت على اتباع طريقة الفقهاء المحدّثين بإشارة نور الغيب وإيحائه"[3].

ولقد آتى هذا الجهد المضني أكله في شبه القارة الهندية خاصة في القرنين الثالث والرابع عشر للهجرة، إذ زاد الإقبال على علوم الحديث واشتهر محدثون محققون كوّنوا نواة مدرسة حديثة هندية كان لها الدور الجليل في خدمة السنة في شبه القارة الهندية بصفة الخاصة والعالم الإسلامي بصفة عامة نذكر منهم:

* ابنه العلامة الشاه عبد العزيز الدهلوي الذي حمل الراية بعد وفات والده.
* الشيخ عبد الرحمن المباركفوري صاحب تحفة الأحوذي في شرح جامع التّـرمذي و مشكاة المصابيح.
* الشيخ وحيد الزمان اللكنوي مؤلف تراجم كتب الحديث و شروحها باللغة الأوردية.
* الشيخ خليل أحمد بن مجيد على السهارنفورى صاحب كتّاب بذل المجهود في حل سنن أبي داود.

و يطول الحديث عن أسماء هؤلاء الأعلام المحدثين الهنود لكثرتهم.

مما تجدر لإشارة إليه هنا أن السلسلة الذهبية للمدرسة الهندية متصلة بالإمام المحدث الشاه ولي الله الدهلوي[4] ويكفيه فخرا بذلك.

---

[1]- المصدر نفسه ، ج1، ص 21.

[2]- السيالكوتي ، مرجع سابق، ص 88-93.

[3]- الدهلوي، الجزء اللطيف، ص 4، نقلا عن : الندوي، رجال الفكر والدعوة في الإسلام، ترجمة مصطفى أبو سليمان الندوي، دار القلم، دمشق، سوريا، ط1، 2002،ج4، ص 192.

[4]- السيالكوتي، المرجع السابق، ص93-97.

4. إصلاح التصوف:

لقد كان للتضعضع الذي عرفته الدولة المغولية –كما أسلفنا– أثر كبير على المستوى العقلي والعلمي والفكري، بل امتد أثره إلى الجانب السلوكي، إذا أدى إلى شقاء روحي وفساد خلقي عظيم، خاصة إذا أضفنا إلى كل ذلك طبيعة العقلية الهندية المتغذية من ثدي التعدد والوثنية وما يجرانه من وحدة وجود ورياضة روحانية، أو مجاهدات نفسية وتحمل وقهر بدني؛ كل ذلك أخذ يتسرب شيئا فشيئا للتصوف الإسلامي حتى أصبح مرتعا لمثل هذه الآفات، وهذا ما استدعى ثورة تصحيحية ترجع الأمور إلى نصابها.

كان للنشأة الصوفية التي نشأها الدهلوي، وإحاطته بالطرق الصوفية السائدة في الهند آنذاك النقشبندية والجشتية والقادرية، إلى جانب التجارب الروحية التي عاشها وتقلب فيها، أثر بالغ في نقد علم الإحسان وتصفيته مما ألحق به من أخطاء، وذلك من خلال عرضه على ميزان القرآن والسنة؛كما شنّ حملة شعواء على أدعياء التصوف الذين شبههم بالأعشاب الضّارة التي لا يستقيم حال الزرع –الإسلام– إلاّ باقتلاعها[1]، بالإضافة إلى أنه شبه أتباعهم المغالين بالنصارى المفرطين في إجلال أسيادهم[2]؛ وقد كان لتأثره بمنهج ابن تيمية بصمة بالغة أدت إلى إنكار التوسل عليهم، كما ذهب إلى النهي عن زيارة قبور الأولياء ومحل عبادتهم وجعل إثم ذلك يفوق إثم القتل والزنا [3]؛ إلى جانب ذلك فهو يرى بعدم نشر إشارات التصوف وأشغاله بين عامة المسلمين لتجنب وقوعهم في الفتن، وتطهيره من كل ما ألصق به مفاسد وفلسفات عقائد باطلة،كما أنه أيدَّ كُلاًّ من مراتب الإحسان والإخلاص والتزكية، ومباحث المقامات والأحوال بشواهد من المعقول والمنقول، وانتقد الرهبنة والتبتل والانقطاع عن الدنيا والناس[4].

5. فتح باب الاجتهاد وذمّ التعصب الأعمى:

ظهرت عبقرية الدهلوي أيضا في مسألة الاجتهاد والتقليد، ففي مجتمع هيمنت عليه روح التقليد والتعصب المذهبي، وسادت فيه قيود تسلط الماضي، وتمسك العلماء والعامة بفروع المذهب الحنفي واكتفائهم بما ضُمّن في كتب الأوائل دون بذل الجهد في الرجوع إلى المصادر الشرعية لاستنباط الأحكام التكليفية تتماشى مع روح العصر، يقول واصفا حال مجتمعه آنذاك: "..وترى العامة في كل قطر يتقيدون بمذهب من مذاهب المتقدمين، يرون خروج الإنسان من مذهب من قلده ولو في مسألة كالخروج من الملة"[5].

لقد كان لتبني الإمام طريقة فقهاء المحدثين القائمة على التمسك بنصوص الكتاب والسنة والمنهج التوفيقي بين الحديث والفقه والاهتمام بفقه النوازل في تصور الإمام الدهلوي الدور البارز في الخروج من هذه المعضلة التي وضعت المجتمع الهندي في إفلاس حضاري، وتركه يدور في دوامة الاجترار والتكرار دون إبداع أو إضافة.

يرى مجدّدنا أن الأخذ بالمذاهب الأربعة والانتساب إلى مدرسة من مدارسها مصلحة ومنفعة عظيمة والأحجام عنها دونما دليل مفسدة كبيرة، فمعرفة الشريعة وأحكامها قائمة أساسا على نقل السلف الصالح لها وإيصالها إلينا عن هذا الطريق، وكل خروج عن هذه المدارس الفقهية هو في حقيقة أمره خروج عن السواد الأعظم للأمة[6]، وهذا أمر نهت عنه النصوص الدينية.

---

[1]– الدهلوي، التفهيمات الإلهية، مصدر سابق، ج1، ص 205.

[2]– الدهلوي، الفوز الكبير في أصول التفسير، دار قتيبة، بيروت، دمشق ، ط1، 1999، ص 30.

[3]– السيالكوتي، المرجع نفسه، ص102–104.

[4]– المرجع نفسه، ص 117–119.

[5]– الدهلوي، التفهيمات الإلهية، مصدر سابق، ج1، ص 151.

[6]– الدهلوي، عقد الجيد في أحكام الاجتهاد والتقليد، تحقيق محمد على الحلبي الأثري، دار الفتح ،الشارقة، الإمارات العربية، ط1، 1995، ص40–43.

لكن هذا الإتباع أو كما يطلق عليه التقليد الجائز مضبوط بضوابط تمنعه من الانحراف إلى تقليد محرم يُعتبر صاحبه مخالفًا للشرع الحنيف، فهو إذا يذهب إلى أن الإتباع الأعمى لصاحب المذهب مع بُعد مذهبه عن أدلة الكتاب والسنة تقليده على أنه نبيٌ مرسلٌ، أمر بعيد عن الصواب وأمر لا يقبله أصحاب الأذواق والألباب[1]، فالتقليد إذا منوط بصحة الدليل لا بواضع المذهب، أي بمدى الموافقة للكتاب والسنّة لا بالأشخاص.

ومع اعترافه بميزة المذاهب الفقهية الأربعة وخدمات فقهاء المحدثين في هذا المجال، إلا أنه يذهب إلى أن الاجتهاد من مقتضيات كل عصر، وهو ما يجعل من الإسلام دينا صالحًا لكل مكان وزمان، خاضعا بذلك لما تفرضه التطورات والتحولات الاجتماعية السياسية والاقتصادية.. الطارئة والمستجدة من حين لآخر على حياة الناس، و يعبّر عن ذلك بكلام جميل في مقدمة كتابه المصفى قائلا: "إن الاجتهاد في عصرنا هذا واجب، فوجهه أن المسائل كثيرة الوقوع ولا يمكن حصرها واستيعابها، ولابد من معرفة حكم الله فيها، والذي دخل في حيّز التحرير والتدوين لا يكفي، والخلافات فيه كثيرة لا يمكن حلّها إلا بالرجوع إلى الدلائل (..) ولذلك فلا مناص من عرضها على قواعد الاجتهاد وأصوله والبحث فيها"[2]، و يقصد الدهلوي بالاجتهاد: الاجتهاد المنتسب الذي هو معرفة الأحكام الشرعية بأدلتها التفصيلية وتفريع وترتيب المسائل على طريقة المجتهدين ولو بإرشاد من إمامٍ ما، لا الاجتهاد المستقل[3].

6. البحث في البعد المقاصدي للتشريع:

اهتم الدهلوي بهذا الموضوع أشدّ الاهتمام، وألّف في ذلك عدة مؤلفات أبرزها كتابه الجليل "حجة الله البالغة"، إذ اعتبر هذا العلم أو كما يسميه: "علم أسرار الدين" أدق العلوم الحديثية وأعمقها متّحدا وأرفعها منارًا، وأعلا العلوم الشرعية مقامًا وأعظمها منزلة، فهو العلم الباحث عن حِكم الإحكام، وأسرار خواص الأعمال به يصير الإنسان على بصيرة فيما جاء به الشرع الحنيف، ويتيقن أن هذه الأحكام لا عسر فيها أو تضييق، فهي متماشية مع فطرته السليمة وبذلك يطمئن قلبه وينجذب إلى العمل فؤاده.

إن الهدف الأسمى من كل ما سبق تجلية المصالح العائدة على العباد من الالتزام بأداء العبادات وأفعال الخير كلها، وبذلك تنجلي عن الطاعات والشعائر الصبغة الآلية بانقذاف الروح والمعنى فيها عن طريق إظهار مقصد الشارع منها[4]، فكل عمل معتبر شرعا يكون بحسب النيات والهيئات النفسية التي يكون عليها صاحب الفعل[5]، ويمكن لنا من هذا العلم أن نجني عدة ثمار يانعة نذكر منها:

أ– إن إظهار المصالح والمقاصد المتضمنة والمتوخّاة من خلال التشريعات التي جاء بها واضع الملّة صلّى الله عليه وسلم يضيف اللّمسة الإعجازية في تأييد نبوته، وفي إثبات أن الدين الذي جاء به أكمل الشرائع وأصلحها لكل زمان ومكان [6] .

ب– حصول الاطمئنان القلبـي، وهو مبتغى كل مريد وسالك، قال تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام: (قال رب أرني كيف تحيي الموتى قال أولم تومن قال بلى ولكن ليطمئنّ قلبي)[1] .

---

[1]– المصدر نفسه، ص 43–44.

[2]– الدهلوي، المصفى في شرح الموطأ، ص12. نقلا عن: الندوي، رجال الفكر والدعوة، مرجع سابق ،ج4، ص200.

[3]– الندوي، رجال الفكر والدعوة، المرجع نفسه، ج4، ص 199–200.

[4]– الدهلوي، حجة الله البالغة، مصدر سابق، ج1، ص 22.

[5]– المصدر نفسه، ج1، ص 27.

[6]– المصدر نفسه،ج1، ص 32–33.

جـ- مساعدة السالك على الزيادة في الاجتهاد في الطاعات والإكثار منها، لأن عبادته بهذا العلم قد نُفخت فيها الروح وأصبح لها معنى انتفت عنها الصبغة الآلية .

د- الخروج من الخلاف الفقهي، وذلك بتحويل البحث من الاختلاف في العلل إلى البحث في المصالح والمقاصد، وهذه لفتة جليلة تسموا بهدفها إلى جمع شتات الأمة وتجاوز الاختلاف والفرقة .

هـ- كما أن دفع المفاسد واجتنابها لن يتسنّ إلا من خلال البحث عن المصالح وتأسيس قواعد استنباطها.

و- إلى جانب أن كثيرا من الأحاديث الصحيحة المخالفة للقياس من كل الأوجه يمكن إعادة اعتبارها من خلال البحث عن الفوائد المعتبرة فيها [2] .

ولم تقف جهود الإمام الدهلوي الإصلاحية عندما ذكرناه من نقاط فقط، بل إن مشروعه الإصلاحي كان متكاملا شمل جميع المجالات.

ففي **الجانب السياسي**، وفي وقت تعاني فيه الدولة المغولية التضعضع والضعف والاضطراب إلى درجة لاحت فيه بوادر السقوط مع تكالب داخلي وخارجي، نجده رحمه الله تعالى غير بعيد عن هذه الأوضاع ولا منضوٍ على نفسه دون علم بما يحدث داخل حدود الدولة، فقد سعى وبكل جهد لاستعادة السلطة الإسلامية في الهند وإعادة تشكيل دولة قوية تسهر على إنجاز مسؤولياتها تجاه مواطنيها وخدمة مصالحهم، لدرجة أنه كان يرى أن خروج الأمة من حالة التردي والتخلف الذي تعيشه لن يكون إلا من خلال إعادة بناء نظام سياسي سائر على النهج النبوي.

ويمكن أن نلمس ذلك من خلال رسائله السياسية التي وجهها إلى أعيان ووجهاء الدولة ومسؤوليها، يدعوهم فيها إلى الالتزام بشعائر الدين ومحاربة الفساد الفوضى، والسعي إلى الإصلاح [3].

أما في **المجال الاجتماعي**، فقد كان من كبار الوعاظّ والمدرسين ومعلمي الأخلاق إن لم يكن في حدّ ذاته مدرسة أخلاقية، وعلمًا من أعلام الإصلاح والتجديد، فقد خاطب بكتاباته ورسائله جميع الشرائح الاجتماعية من طلبة وعلماء ومتصوفة وجنود وحرفيين، ووضع يده على نقطة ضعف كل مكّون من مكونات المجتمع، وأعطى في رسائله هذه الحلول لكل مشاكلهم وهذا ما يدّل على عمق نظره وجرأته وحكمته في المجال الدعوي.

كما حمل على عاتقه مسؤولية محاربة العقائد والفلسفات الهندوسية التي عرفت طريقها للمسلمين، ومحاربة التشيع والرفض، وهذا ما نراه من خلال العديد من مؤلفاته على غرار: إزالة الخفاء عن خلافة الخلفاء، وقرة العينين في تفضيل الشيخين؛ إلى جانب سعيه إلى تكوين مجموعة من الرجال واصلوا دربه الإصلاحي وساروا على نهجه التجديدي في عرض وتبليغ التعاليم الإسلامية الصحيحة مثل: عبد العزيز الدهلوي، أحمد بن عرفان، عبد الغني الدهلوي، ومحمد إسماعيل الشهيد..[4].

---

[1]- سورة البقرة،الآية 260.

[2]- الدهلوي، حجة الله البالغة ،المصدر نفسه، ج1، ص33-34.

[3]- سيد بن حسين العفاني، زهرة البساتين من مواقف العلماء والربانيين، ج2، دار العفاني، القاهرة، مصر، دط، دت، ج2، ص142 و149-161.

[4]- المرجع سابق ، ج2، ص 161، 190.

يمكننا مما سبق أن نخلص إلى أن الدهلوي قد وضع لعمله التجديدي هذا أساسا ثابتا قوامه القرآن و السنة المطهرة، مزاوجًا في ذلك بين الفهم المقاصدي لجوهر الإسلام وشريعته، وبرؤية تجديدية حملها بين جنبيه ووعاها فؤاده الصافي الّذي ينضح بالروحانية الربّانية.

يقول أبو الأعلى المودودي معبرًا عن مكانته عنده: "إن الإمام الدهلوي لا ريب من زعماء التاريخ الإنساني، الذين يعالجون مُرْتَبكَ الأفكار، ومتشابك الآراء، فيجلون غموضها، ويحلّون معقّدها، ويصنعون للفكر والنظر نهجًا واضحا مستقيمًا، ثم يُخلفون من بعدهم في نفوس الناس تضجّرا من الأحوال الراهنة، ويتركون في أذهانهم صورا رائعة لبرامج الإصلاح والإنشاء"[1].

ويقول الشيخ السيد سابق في ذات السّياق أيضا: "وكان الشيخ ولي الله (..) علما من الأعلام وإماما من الأئمة ومصلحًا من المصلحين، ومجددًا من خيرة رجالات التجديد، وقد بلغ منزلة لا تقل عن المنزلة التي بلغها حجة الإسلام الغزالي، وشيخ الإسلام ابن تيمية، وقد جمع الله عزّ و جلّ له من العلوم والمعارف ما جعله سيد قومه" [2] .

ويقول عنه الشيخ مسعود الندوي في كلمة جامعة مانعة: "إن الإمام ولي الله الدهلوي من الرجال العباقرة الأفذاذ، الذين يسعون ليل نهار لإحداث انقلاب فكري وتغيير في عقول الناشئة والشبيبة، وصقل أذهان الشيوخ ليرقى بهم جميعا إلى المستوى الفكري المنشود الذي يمكنهم من النظر إلى الأشياء نظرة الناقد المنصف النزيه (...) إن الإمام الدهلوي من عداد أولئك المفكرين المصلحين الذين استنارت بأفكارهم المبثوثة في تفاريق مؤلفاتهم عقول معاصريهم ومن جاء بعدهم، وتنورت قلوبهم وانجلى ما لصق بمرآتها من صدإ الشك والجمود، وانحل ما انعقد في آذانهم من مشاكل الزيغ والارتياب، لكنه رحمه الله تعالى لم يتأت له أن يقوم بنفسه بالتجديد العملي وينهض بالأمة ويرقى بها إلى المستوى الفكري والخلقي الذي أوضحه في مصنفاته (...) وعذره في ذلك أن كان منصرفا بكل وقته إلى صقل مرآة الأفكار، وتنوير ظلمات الجهل"[3].

4. خاتمة:

نصل في الأخير إلى مجموعة من النتائج، نوجزها فيما يلي:

- التجديد ضرورة حتمية ليضمن الدين صيرورته عبر التاريخ، ويتجنّب الجمود وبالتالي الاندثار، وتعتبر محاولات التجديد في الدين الإسلامي نقطة اتفاق بين مختلف علماء الأمة من شرقها إلى غربها، همهم واحد أن يغيروا واقع مجتمعاتهم نحو الأفضل وأن يبقى للدين في هذه الأمة تأثيره وفاعليته.
- خصوصية الجغرافية الهندية فرضت مباحث تجديدية غير التي فرضتها البيئة العربية، وهذه نقطة قوة الإسلام، أي قدرته على التفاعل والتعايش داخل مختلف الأنساق الفكرية والحضارية؛ ولعل أبرز خصيصة للتجربة التجديدية مع الدهلوي كانت ترجمة معاني القرآن الكريم إلى الفارسية من أجل تثبيته في نفوس المنتسبين إليه من غير الناطقين بالعربية.

[1] – أبو الأعلى المودودي، موجز تاريخ تجديد الدين وإحيائه وواقع المسلمين وسبيل النهوض بهم، دار الفكر الحديث، بيروت، لبنان، ط2، 1967، ص 102.
[2] – السيد سابق، مقدمة حجة الله البالغة، مصدر سابق، ج1، ص14.
[3] – مسعود الندوي، تاريخ الدعوة الإسلامية في الهند، دار العربية، بيروت، لبنان، دط، دت ، ص 139-141.

- الاهتمام بالسنة النبوية وموطأ الإمام مالك كان مبنيا على تأثر الدهلوي بمشايخه في رحلاته العلمية، بالإضافة إلى تبويباته المضبوطة، وفوق ذلك كونه كتابا جمع بين الحديث والفقه وهو ما عمل به الدهلوي في الفروع الخلافية.
- محاولة جمع الناس على مذهب فقهي واحد خطوة مهمة نحو جمع شتات الأمة وتلافي الصراعات، خاصة وأن الخلاف في الفروع والتعصب المذهبي جرّا على الأمة من النقم الكثير، لكن لو لاحظنا التوزيع الجغرافي للمذاهب الفقهية لوجدا من المحال جمع الناس على مذهب واحد، إذ إن كل إقليم اختار ما يتواءم مع خصوصياته.
- البحث في مقاصد الشريعة وإشاعته بين الناس من الأهمية بمكان، خاصة أنه يحاول أن يبسط للناس مقاصد واضع الملة من التشريع، والبعد الغائي للعبادات، والمقصد الكامن وراء الأحكام، وهذا ما يخرج بالعبادة من صبغتها الآلية إلى بعدها الروحاني أولا ثم تجلياته الاجتماعية والاقتصادية والثقافية.
- كل تجديد يهمل الثالوث المقدس الذي انبنى عليه الإسلام وأسس له حديث جبريل عن الإيمان والإسلام والإحسان، تجديد أجذم أبتر أقطع.

6. قائمة المراجع:

1- القرآن الكريم.
2- الدهلوي، التفهيمات الإلهية، المجلس العلمي، دابهيل (سورت)، الهند، ط1، 1936، ج2.
3- الدهلوي، الفوز الكبير في أصول التفسير، دار قتيبة، بيروت، دمشق ، ط1، 1999.
4- الدهلوي، حجة الله البالغة، تحقيق السيد سابق، ج1، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط1، 2005، ج2.
5- الدهلوي، الرسائل الثلاث: الفضل المبين في المسلسل من حديث النبي الأمين، الدر الثمين في مبشرات النبي الأمير، النوادر من أحاديث سير الأوائل والأواخر، تعليق: محمد عاشق إلهي، دار الكتاب يوبند، يوبي، الهند، ط1، 1418هـ.
6- الدهلوي، عقد الجيد في أحكام الاجتهاد والتقليد، تحقيق محمد على الحلبي الأثري، دار الفتح ،الشارقة، الإمارات العربية، ط1، 1995.
7- الدهلوي، الفوز الكبير في أصول التفسير، دار قتيبة، بيروت، دمشق ، ط1، 1999.
8- محمد بشير السيالكوتي، الإمام المجدد المحدث الشاه ولي الله الدهلوي حياته ودعوته، دار بن حزم، بيروت،لبنان، ط1999،1.
9- الكتاني، الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام "نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر، ج5، دار بن حزم، بيروت، لبنان، ط1، 1999، ج2.
10- أبو الحسن الندوي، رجال الفكر والدعوة في الإسلام، ترجمة مصطفى أبو سليمان الندوي، دار القلم، دمشق، سوريا، ط1، 2002،ج4.
11- سيد بن حسين العفاني، زهرة البساتين من مواقف العلماء والربانيين، دار العفاني، القاهرة، مصر، دط، دت، ج2.

12- أبو الأعلى المودودي، موجز تاريخ تجديد الدين وإحيائه وواقع المسلمين وسبيل النهوض بهم، دار الفكر الحديث، بيروت، لبنان، ط2، 1967.

13- مسعود الندوي، تاريخ الدعوة الإسلامية في الهند، دار العربية، بيروت، لبنان، دط، دت ، ص 139-141.

14- محمد ناصر الدين الألباني، صحيح سنن أبي داود، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط1، 1998، ج3.

15- مصباح الله عبد الباقي، الإمام ولي الله الدهلوي وترجمته للقرآن، مجلة البحوث والدراسات القرآنية، الأمانة العامة لمجمع الملك فهد لطباعة المصحف، المدينة المنورة، السعودية، 2008، العدد 6.